هو السمة والقاعدة في كتابة تراجم الأعلام؛ بل هو شرط ملازم في الغالب للترجمة، ذاتية كانت أم موضوعية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن كل ترجمة لابد أن تنطوي على نفع وفائدة كبيرة، وهذا شرط ثاني لا يقل أهمية عن الشرط الأول.

فجميع هذه الملامح والمعالم تساعد بدون شك على الاقتراب أكثر من مفهوم "الترجمة الموضوعية"، بقدر ما تفيد ضمنا في إيضاح المقصود بالترجمة الذاتية، ونحن لا نتفق مع من يرى بأن من الممكن أن تشغل السيرة الذاتية صفحات معدودة! أو أنها قد تكون أشبه بشهادة ميلاد صاحبها! فهذه ليست صفة "السيرة الذاتية" على الإطلاق، وإنما هي صفة "الترجمة الذاتية"، ذلك لأن السيرة، سواء أكانت ذاتية أم موضوعية، فإنها متغير الممكن تماما أن تأتي في صفحات معدودة، بحكم أن الإسهاب في السرد يعد من خصائصها الأصلية، بحيث إن وضع الترجمة الذاتية بالنسبة إلى السيرة الذاتية شبيه بوضع الأقصوصة أو القصة بالنسبة إلى الرواية.

ومما يثير الاستغراب أكثر لدى القارئ الباحث – خاصة لدى ذلك المتلقي الذي قد يلتبس عليه المقصود بلفظي: ("الترجمة" و"السيرة") تلك المصادفة التي تحدث بينه وبين توظيف المصطلحين في غير محلهما،أثناء قراءته بعض الأبحاث أو الدراسات، أو المقالات النقدية حول أدب السيرة الذاتية.

وكان من الأجدر لتلافي هذا اللبس وسد هذه الثغرة الاصطلاحية، أن تحكمبدلا من ذلك التوظيف الاعتباطي قاعدة دلالية واضحة، وأما الأمثلة الشاهدة على سوء توظيف المصطلحين فكثيرة جدا، بدءا من عناوين الأبحاث، والدراسات، والمؤلفات،والمقالات النقدية، وانتهاء بالمتون الواصفة لأدب السيرة الذاتية، وجميع تلك التوظيفات يخلط فيها أصحابها بين "الترجمة الذاتية" و"السيرة الذاتية"، وشتان بينما تعنيه الأولى وما يراد بالثانية.

على العكس تماماً مما هو شائع، فالعرب هم أهل السيرة الذاتية ورواد في كتابتها، لا بل ان الكتابات العربية القديمة الموصوفة بالسير الذاتية، تفوق بعددها، كل ما كان يعتقد وجوده. وكل كلام عن ان هذا الفن عند العرب، مستورد من الغرب، مجرد بدعة، وسوء قراءة. فالأدب العربي القديم «مشحون حتى السقف بمئات ألوف الرجال والنساء الذين دونت حياتهم بعناية. وحجم هذا التراث ضخم إلى حد أننا نشرع الآن في سبره أو نكاد»، كما يخبرنا المؤرخ طريف الخالدي. هذا الرأي ليس اجتهاداً عربياً، او تنطحاً عنصرياً من قبل باحث كبير مثل الخالدي، انه أيضاً رأي المستشرق الأميركي دوايت رينولدز، الذي درس السير الذاتية العربية ومنحها جزءاً مهماً من حياته المهنية. ويأتي رأي الباحثين، المفاجئ هذا، ضمن كتاب جميل صدر حديثاً عن «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» بعنوان «دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام، قراءة في السير والسير الذاتية»، شارك فيه 14 مؤلفا، وتناول عشرات السير الذاتية، ليكشف عن كنز نعيش بجواره من دون أن ندرك

وجميع النماذج التي نستطيع أن نعثر عليهادون عناء في العديد من الكتابات تكشف بجلاء عن مظاهر الخلل على مستوى الاصطلاح، وعن مدى الخلط الحاصل في الذهنية الأدبية والنقدية العربية، وإذا كان أكثر الباحثين الدارسين في مجال أدب السيرة الذاتية قد نظروا إلى مسألة الخلط بين لفظي: "السيرة" و"الترجمة" وكأنها قضية مسلم بها، ووقفوا منها موقف الحياد السلبي، فإننا نجد من النقاد من آثروا توظيف لفظ "السيرة" عند تحدثهم عن تاريخ الفرد المسهب، واستعملوا لفظ "الترجمة" عند تناولهم بالحديث التاريخ الموجز للفرد، كما نلمس عند بعضهم قدرامن الحذر في تعاملهم مع الاصطلاحين معا ، وعيا منهم بأن ثمة تمايزا بينا وفرقا جليابينهما.

لا يوجد إذن أي مبرر لدمج الاصطلاحين معا في معنى واحد، وقد حان الوقت لنضع كل مصطلح في سياقه الطبيعي والمناسب، وليتخذا وضعهما الأصلي في الحقلين: الأدبي والنقدي العربي الإسلامي، لأن الترادف المزعوم بينهما، كما ذكرنا، فيالدلالة الاصطلاحية لا يستند إلى دعامة صلبة أو ركن شديد، ومن ثم فنحن لا نتفق معمن يرى بأن التمييز بين اصطلاحي: "السيرة" و"الترجمة" ما هو إلا تفريق سطحي، سرعانما يتلاشى عند تعريضه لأدنى تمحيص.

ثم لأن ثمة شواهد ومعالم تبرز ضرورته، ثم إن "الترجمة الذاتية" أدب نثري له من الشروط، والخصائص، والأغراض ما يميزه عن "السيرةالذاتية"، وكلا اللونين ينتميان إلى الأدب الذاتي أو الخاص، ويكتبان من طرف المعني بهما، كذلك "الترجمة الموضوعية" ليست هي "السيرة الموضوعية"، إذ لكل منهما شروط ومبادئ خاصة، على الرغم من كونهما ينتسبان إلى الأدب الموضوعي أو الغيري، ويؤلفان منقبل شخص آخر غير معني بهما.

أما "الترجمة الذاتية"، فستظل على الدوام غير مؤهلةإطلاقا لتقوم بدلا عن "السيرة الذاتية" أو لتحل وتشغل مكانها، ذلك لأن كاتب السيرةالذاتية ملزم بأن يعكس للقراء

وجه حياته الشخصية بتفاصيلها ودقائقها، قدر الإمكانطبعا، على مرآة التعبير الأدبي، مع العلم بأن السيرة الذاتية تهدف إلى الاشتمال علىجزء من حياة صاحبها، إذ يتعذر عليها أن تحيط بسائر ما مضى من حياته الشخصية،ومؤلفها مطالب بالاقتراب أكثر من ذاته بالوصف، والتفسير، والتحليل، والتعليق،والنقد أيضا، وجميع هذه الأفعال الخطابية يجب أن يمارسها بإسهاب وليس باقتضاب، وإنكان من غير الهين على الإطلاق أن يتخذ الكاتب من ذاته وذاكرته موضوعا للسرد.

كانت هذه إطلالة سريعة على ما تعنيه الترجمة الذاتية وما تدل عليه السيرةالذاتية، ونأمل أن نكون قد أسهمنا بهذه المقالة في دعوة الباحثين.والمهتمين بأدبالسيرة الذاتية إلى إيضاح قدر الإمكان ما يمكن إيضاحه في هذا الباب.

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.